المحاضرة 10: قضية اللفظ والمعنى

تمهيد:

تعد قضية اللفظ والمعنى مثلما سبقت الإشارة إليه- السداسي الأول- عند الحديث عن اللفظ والمعنى عند ابن قتيبة وابن طباطبا وقدامة بن جعفر... من القضايا التي اختلف فيها النقاد العرب القدامى فتباينت آراؤهم حولها وانقسمت إلى ثلاثة آراء؛ رأي يفضل المعنى على اللفظ، وثان يقدم اللفظ على المعنى، وثالث يسوي بينهما.

مقـاييس النقـاد لجودة اللفظ والمعنى:

لم يختلف النقاد العرب القدامى في التأكيد على مجموعة من المقاييس التي يجب أن تتوفر في اللفظ والمعنى، وهي كما يلي:

- جزالة اللّفظ واستقامته:

الجزالة في اللّغة المتانة والقوّة والشدّة، وهي ضد الرّكاكة والضعف.أما في الاصطلاح فهي تعني الفصاحة؛والفصاحة عند من يميّز بينها وبين البلاغة،فيجعلها-صفة مقصورة على اللّفظ دون المعنى، بخلاف البلاغة التي تكون وصفا للفظ مع المعنى- تعني من بين ما تعنيه موافقة الكلام للغة العرب،وعدم الخروج عمّا عليه أهل الأدب،أما ابن الأثير فيجعل الجزالة مُقابلة للرّقة حيث يقول:"والألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزْلة ورقيقة، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه.فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب،وفي قَوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك وأمّا الرّقيق منها فإنّه يستعمل في وصف الأشواق،وذكر أيام البعاد،وفي استجلاب المودّات وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك"[1]. الجزالة لا تعني غرابة اللّفظ وغموضه ووحشيته، كما لا تعني سهولته المفرطة ورقّته الزائدة، التي

[1] - ابن الأثير،المثل السائر،ج1،ص:185.

قد تصل به إلى درجة الإسفاف والابتذال. وإنّما هي مرتبة وسطى بينهما. فلا يكون ذلك السّهل الممتنع الذّي يتوهّم الإنسان العاديّ أنّه قادر على الإتيان بمثله.

أمّا **الاستقامة** فتعني خضوع اللّفظ لقواعد اللّغة وأصولها التّي وضعها علماء اللّغة، ذلك بأ ن كلّ خرق لقاعدة من هذه القواعد يعدّ عيبا يذهب باستقامته.
ومن أمثلة ذلك قول الشّاعر:

الحمد لله العليّ الأجلل

أي كان عليه أن يقول :الأجلّ، مراعاة للقاعدة الصّرفيّة.

وعيار جزالة اللّفظ واستقامته هو "الطّبْع والرّواية والاستعمال، فما سَلمَ ممَّا يهجِّنه عند العَ رض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مفرداته وجملته مراعى، لأن اللفظة تُستَكرم با نفرادها، فإذا ضامّها ما لا يوافقها عادت الجملة هجِّينا "[2]

– **شرف المعنى وصحّته:**يقول بِشر بن المعتمر مبينا معنى الشرف في المعنى :"
والمعنى ليس يَشرف بأن يكون من معاني الخاصة وكذلك ليس يَتّضع بأن يكون من معا ني العامة . وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موتفقة الحال، وما يجب لكل مقام مقال"[3]،
ويقابل المعنى الشريفَ المعنى السخيفُ المبتذل، ومن أمثلته قول أبي العتاهية يَرثي الخليفة المتوكّل: **ماتَ الخَلِّيفَة أيُّها الثَّقلانِ فَكَأنَّنِي أَ فطَرْت في رَمَضَان.**

أما الصّحة، فتفيد، من بين ما تفيده، مطابقةَ المعنى لحقيقة ما يتحدث عنه الشاعر، بح ث لا يكون في المعنى خطأ يبعده عن الصواب والصحة، إمّا بسبب جهل الشّاعر حقيقة ما يتحدث عنه،أو نقص خلرته وتجربته.

---

[2] – المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ص9.

[3] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1 ، ص.136

ومن أمثلة الخطأ في الشّعر قول أبي نواس يصف الكلب:

كأنمّا الأُظفور من قِنابه موسَى صنّاعٍ رُدَّ في نصَابهِ.

فقد علّق المظفَّر بن يحي على هذا البيت بقوله:
غلط أبو نواس في قوله...، لأنّه ظنّ أنّ مخلب الكلب كمخلب الأسد والسنَّور الذّي ينسَتر إذأراد حتى لا يتبيّنا، وعند حاجتهما تخرج المخالب حُجنًا محدّدة يفترسان بها، والكلب م بسوط اليد أبدا غير منقبض"[4]،

– **مقاييس اللفظ:** اشترط النقاد العرب القدامى جملة من المعايير الفنية التي يجب أن تتوفر في اللفظ حتى يعتد بفصاحته. من أهمّها ما يلي:

1– أن تكون اللّفظة مؤلّفة من حروف متباعدة المخارج؛ وعلّة ذلك أنّهم يرون أنّ الحروف، وهي أصوات تجري من السّمع مجرى الألوان من البصر، وأنّ هذه الألوان المتباينة حين تجمع، تكون في المنظر أحسن، وعلى هذا القياس كانت العلّة في حسن تأليف اللّفظة من الحروف المتباعدة، ومن أمثلة هذا الشّرط إنكارهم لكلمة "هعخع" ذات الدّلالة المعروفة عندهم، بسبب تأليفها من حروف حلقيّة؛ فصعب نطقها بسبب تقارب حروفها.

2– أن تكون اللّفظة غير وحشية من غريب اللّغة من ذلك ما يروى عن أبي علقمة النّحويّ، قوله: "ما لكم تتكأكؤون عليّ تكأكؤكم على ذي جنّة؟ افرنقعوا عنيّ "؛ فإن كلمتي تتكأكؤون وافرنقعوا من غريب اللّغة.

3– أن تكون الكلمة جارية على العرف العربيّ الصّحيح، ومثال ذلك قول الشاعر:

شرطي الإنصاف إن قيل اشترط وصديقي من إذا صافى قسط

---

[4] – المرزباني، الموشح، ص343 .

أراد الشّاعر بـ " قسط عدل، وليس الأمر كذلك، وإنّما يُقال: أقسط إذا عدل وقسط إذا جار، لقوله تعالى: وأمّا القاسطون فكانوا لجهنم حطبا "(الجن:15)

– ومن هذا القبيل، التصرف في صياغة اللفظة تصرفا يتنافى مع العرف اللغوي السليم. ومن الأمثلة على ذلك:

– كأن يتصرّف في اللّفظة على سبيل الزّيادة فيها، كقول الشّاعر:

تنفي يداها الحصا في كلّ هاجرة نفي الدّراهيم تنقاد الصياريف.

يُريد الدّراهم والصّيارف.

– ومن ذلك إظهار التّضعيف في اللّفظة، كقول الشّاعر:

مهلا أعاذل قد جربت من خُلقي أنّي أجود لأقوام وإن ضننوا.

والصحيح "ضنّوا

– ومنه صرف ما لا ينصرف، كقول الشاعر :

وجبريلٌ أمين الله فينا وروح القدس ليس له كفاء.

فقد صرف كلمة جبريلَ.

– أو منع الصّرف ممّا ينصرف، كقول الشّاعر:

وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداسَ في مجمع.

فمنع الصّرف عن "مرداس".

– ومنه حذف الإعراب للضّرورة كقول الشّاعر :

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثما من الله ولا واغل. يريد: أشربُ.

– ومنه مذ المقصور، أو قصر الممدود، كقول الشّاعر:

سيغنيني الذّي أغناك عنيّ فَلا فَقَرٌ يدومُ وَلاَ غناءُ. يقصد "غنى".

– ومنه تأنيث المذكر، أو تذكير المؤنث، كقول الشّاعر:

وتشرق بالقنا الذي أدعته كما شرقت صدرُ القناة من الدّم.

والصّوابُ شرِقَ صدرُ القناةِ.

– ألاّ تكون الكلمة قد عبّر بها عن أمر آخر يكره ذكره. ومثال ذلك قول الشّاعر:

قلت لقوم في الكنيف تروّحوا عشية بِتنا عند وان رُزّح.

ومعلوم أنّ " الكنيف أصله السّاتر، وقد استعمل للدّلالة على المكان الذّي تقضى فيه الحاجة ولذلك يكره توظيفه هنا.

– أن تكون الكلمة معتدلة الحروف، فإذا زادت قبحت، كقول الشاعر:

إن الكريم بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها.

فكلمة سويداواتها كثيرة الحروف.

– ضرورة تجنّب تكرار الكلمات المتقاربة الحروف من قبل النّاظم؛ لأنّ ذلك منفّر، وذلك كقول الشّاعر: **وقبرُ حربٍ بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر.**

– **مقاييس المعنى [5]:** وتشتمل مقاييس المعنى عند النقاد العرب القدامى على الآتي:

– **الصّحة والخطأ:** حيث كانوا يشترطون أن يكون المعنى صحيحا لا خطأ فيه من ناحية واقع الحياة، أو واقع التّاريخ، أو واقع اللّغة. وقد أحصوا على الشّعراء أخطاء معنويّة وقعوا فيها بسبب جهلهم بالحقائق التيّ تحدثوا عنها من ذلك:

– فمن الأخطاء القائمة على الجهل بالحقائق، كقول أبي نواس يصف الأسد:

كأنّما عينه إذا نظرت بارزة الجفن عين مخنوق.

فإنّ عين المخنوق تكون جاحظة، ولا يوصف الأسد بجحوظ العين بل بغؤُورها.

– ومن الأخطاء المخالفة للتّاريخ، قول زهير بن أبي سلمى:

فتُنتج لكم غلمان أشأم كلّهم كأحمر عادٍ ثمّ تُنتج فتفطم.

لأنّ المشؤوم هو أحمر ثمود لا عاد.

– ومن الخطأ اللّغوي، قول البحتريّ:

تشقّ عليه الرّيح كلّ عشية جُيُوبَ الغَمَامِ بين بِكْرٍ وَأَيّم.

فالأيّم هي من لا زوج لها بكرا كانت أو ثيّبا، ولكن البحتريّ ظنّ أنّ الأيّم هي من ليست بكرا.

والأغلب أنّ الخطأ في المعاني الشّعريّة، يعود إلى جهل الشّاعر بالحقائق التيّ يوردها؛ ومن ثمّ كان واجبا عليه أن يكون متمكّنا من الثّقافة اللاّزمة حتىّ لا يقع في أي لون من الأخطاء المشار إليها آنفا.

---

[5] ينظر: داود غطاشة وحسين راضي، قضايا النّقد العربي قديمها وحديثها، مكتبة الثقافة عمّان، الأردن، ط2، 1991م، ص 12-34.

خلاصة لكل ما سبق ذكره بالرغم من اختلاف وجهات النظر بين من يتعصب للفظ، وبين من يؤكد على أهمية المعنى على حساب اللفظ، وبين من يوفق بينهما، كما يقول أبو هلال العسكري: "الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح"،[6] ونجد هذا التشبيه للفظ بالجسد، والمعنى بالروح يتكرر عند كثير من النقاد من بعده كابن طباطبا العلوي الذي يرى أن: "الكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه"[7]، وهي محاولة لإظهار مدى التآلف والانسجام بين عنصري الخطاب الأدبي، فكما أن الجسد لا قيمة له بدون روح، والروح لا قيمة لها بدون جسد، لأنها شيء غير محسوس، فكذلك اللفظ لا قيمة له بدون المعنى، إذ يستحيل إلى مجرد رموز كتابية، أو أصوات كلامية لا دلالة لها، وكذلك المعنى لا وجود له إلا في إطار اللفظ .

[6] – أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص179.

[7] – ابن طباطبا العلوي، المصدر نفسه، ص11.